آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السابعة : العددان السابع والعشرون والثامن والعشرون - رمضان ١٤٢٠ هـ - كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠ م

■ مصحف شريف كتب في القرن التاسع

A COPY OF THE HOLY QURAN

written in the 9th century A. H.

(٣)

موقف إدوارد سعيد من الاستشراق

الأستاذ الدكتور/ الرشيد بشير بو شعير
جامعة الإمارات العربية المتحدة

مقدمــة

لا أعلم حتى الآن أيّ دارس من الدارسين العرب أو الأوربيين استطاع أن يرتقي بدراسة موضوع «الاستشراق» إلى مستوى التحليل الفكريّ المنهجيّ كما ارتقى به إدوارد سعيد* ؛ ذلك أن إدوارد سعيد لا يدرس ظاهرة الاستشراق دراسة تاريخيّة أو ببليوغرافيّة ، على نحوٍ ما نرى عند جلّ الدارسين ، وإنما يدرسها بوصفها تنطوي على إشكالية معقّدة نسجت خيوطها بأسلوبٍ جديد لمعرفة جديدة تتصل بعلاقتنا مع الآخر.

ومن تجليات هذه الإشكالية أننا نرى إدوارد سعيد يطرح أسئلةً جوهريّة، ترتبط بالعلاقة التاريخيّة والثقافيّة بين أوربا وآسيا، وبالنظام التدريسيّ العلميّ الذي أتاح للأوربيين في مطلع القرن التاسع عشر إمكان التخصّص في دراسة أنماط الثقافات الشرقية، والافتراضات الأيديولوجية، والصور، والأخيلة «الفانتازية» عن الشرق.

ومن تجليات هذه الإشكالية أيضًا أنّ إدوارد سعيد يوسّع مفهوم الشرق جغرافيًّا؛ ليشمل الجنوب بأسره مقابل الشمال، ويوظّف منهجًا متميّزًا يفيد فيه من مناهج «فوكو» و«باخيتن» والبنيويين، ولكنه لا يكرّر تلك المناهج، وإنما يتمثّلها، ويضيف إليها لمساتٍ أصيلة تومىء إلى طابعه الخاص ونفاذ بصيرته وألمعيّته، وهو ما نلمسه في كلّ تحليلاته لظاهرة الاستشراق بخاصّة، وللظواهر الثقافية والأدبية بعامّة، وهي التحليلات التي تزيح الستار عن العلاقة الوثيقة بين تلك الظواهر والبنية الفكرية الاستعماريّة.

موقفه من الاستشراق

إنّ الاستشراق عند إدوارد سعيد «أسلوبٌ من الفكر قائم على تمييزٍ وجوديّ (أنطولوجي) ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق و(في معظم الأحيان) الغرب»(١)، ولكن هذا «الفكر» في كتابات إدوارد سعيد لم يكن أبدًا فكرًا موضوعيًّا حياديًّا بريئًا، بل كان فكرًا مريبًا مغرضًا، يستهدف «السيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه»(٢).

ذلك هو المفهوم الذي يسلك جميع كتابات إدوارد سعيد التي تدرس ظاهرة الاستشراق والظواهر الثقافية والأدبية الأخرى التي تمسّ إشكاليّة العلاقة

مع الآخر، وبخاصة في كتابيه الذائعي الصيت (الاستشراق)[٣] و(الثقافة والامبريالية)[٤].

وتجنّبًا للإطالة والتكرار ونافلة الكلام لن نقدّم عيّناتٍ من الظواهر الاستشراقيّة التي درسها إدوارد سعيدٍ في هذا المقام، ما دامت تلك العيّنات كلها تأتي في سياق البرهنة على صحة المسلمة التي انطلق منها، وهي توظيف الاستشراق بغرض الهيمنة الاستعمارية بجميع أشكالها وأنماطها على الشرق بخاصّة والعالم الثالث بعامّة، وإنما نحاول أن نثمّن هذا الموقف الذي أصبح معروفًا وغنيًّا عن العرض والشرح في أوساط المفكرين المعاصرين.

إن إدوارد سعيد ركّز اهتمامه على دراسة الاستشراق الإنجليزي والفرنسي والأمريكي، ولم يدرس الاستشراق في سائر الأقطار الأوربية.

ولن نستعرض كلّ جهود المستشرقين الأوربيين في هذه العجالة، وإنما نكتفي بالوقوف عند جهود المستشرقين الإسبان والألمان تحديدًا، وذلك بإيجازٍ شديد:

١ - جهود المستشرقين الإسبان:

لعلنا نتنكب جادّة الصواب إذا حاولنا أن نغضّ الطرف عن حقيقة العلاقات التاريخية الإسبانية العربية، ونقفز على برزخ الصراعات الدموية على إثر خروج العرب من إسبانيا بعد مكوثهم هنالك طَوال ثمانية قرون، وما تلا ذلك من حروبٍ صليبية طاحنة، ومن ملاحقة للمسلمين الإسبان الذين تنصروا على سبيل التقيّة، أو تنصّروا هربًا من محاكم التفتيش، وهم «الموريسيكيون»، إضافةً إلى ملاحقة «المورو»، وهم العرب والمسلمون عمومًا.

إنّ الإسبان ظلّوا يُهمّشون «الموريسيكيين»، ويحطّمون ثقافتهم المتميزة، التي كانت تحول دون اندماجهم وذوبانهم التامّ في المجتمع الإسبانيّ، كما كانوا يزرعون صورة مشوّهة عن «المورو» الشبق المتغطرس المتوحش المتعطش للدماء في وجدان الأبناء والأحفاد على امتداد ثلاثة قرونٍ أو يزيد، وهو ما يعترف به بعض المستشرقين الإسبان، على نحو ما فعل «خوان غويتيسولو»، الذي يؤكد استمرار هذه النزعة العدائيّة التي تغذيها الإحن الصليبيّة الدفينة، التي تتجلى من خلال الأدب الإسبانيّ صراحةً:

«يمكن أن يبدو الكشف عن صورة «المورو»، كما تظهر في أدبنا الإسباني الممتد على قرونٍ عديدة شبيهًا بممارسة شاذّة موجّهة لإغراق القارىء بأنطولوجيا ومنتخبات كاملة من الشتائم والنعوت القدحيّة. وفي مقدورنا حقًّا أن نجمع في هذا الصدد مجلداتٍ كاملة من الصفات الأكثر إهانة، والصور الأكثر ازدراء، والنظرات الأكثر تعصّبًا عرقيًّا. فلقد تمخّض السجال مع الإسلام، الذي انتعش في البداية بدافع مقاومة المسلم الإسباني، ومن بعده ضد المسلم التركيّ، ومن ثمّ، وابتداءً من أواسط القرن التاسع عشر، ضد جيراننا الأفارقة الشماليين، أقول: تمخّض عن أدبٍ واسع تذكر حولياته وقصصه ومآسيه، بما يتكرّر فيها من [كليشيهات] لازمات ومحاجّات»[٥].

إلاّ أنّ هذه الروح العدائيّة ما تلبث أن تخفّ حدّتها شيئًا فشيئًا، ثم تتحوّل فيما بعد لدى كثيرٍ من المستشرقين الإسبان من النقيض إلى النقيض؛ أي من العداء الدفين إلى الصداقة الصريحة. ويكفي أن نشير في هذا المقام إلى كتابات المستشرقين الإسبان الذين أنصفوا العرب والمسلمين، من أمثال «مانويل غارثيا مورنته»، و«دومينغو باديا» الذي أسلم، و«السير ريتشارد برتون»، و«إيمليو غارثيا غوميث» و«خوان غويتيسولو»، وغيرهم كثيرون.

إنّ «غويتيسولو» - على سبيل المثال - يعبّر عن أسفه الشديد على «الإبادة المنظمة»، التي تعرّض لها «الموريسيكيون»، ومحو آثارهم الثقافية، و«إحراق المخطوطات العربية»، وإلغاء الكراسي الجامعية المتخصصة في الدراسات العربية الإسلامية، مؤكّدًا أنّ سبب ركود الثقافة الإسبانية في القرون الماضية يرتبط أساسًا بمحاولة كبت الثقافة العربيّة الإسلاميّة

التي تمنح تلك الثقافة أصالتها، ولكنّ تلك المحاولات باءت بالإخفاق في تقدير «غويتيسولو»: فلا «إحراق المخطوطات العربية، ولا سياق التطويع الثقافي واتّهام الإسبان المختلفين بكونهم أنصار الشيطان تمهيدًا لطردهم، ولا المحاولة الخرقاء لتنصير المساجد والمنابر الإسلاميّة، أفلحت في إزالة المزار الهائل من الذكريات والشواهد: فكلّ مشاهدٍ يلاحظ، ومن أول نظرة، غرابة قصر كارلوس الخامس في «الحمراء» وغربته قياسًا بمحيطه الغرناطي الإسلاميّ. وكما نعلم اليوم، فالواقع المقبور باسم مذهب توحيد الإسبان لم يختفِ إلاّ سطحيًا، وبقي متجذّرًا فيما دون وعينا تمامًا كهذه الانطباعات والصور الطفوليّة المنسيّة في الظاهر، والتي تظلّ تترصّدنا في الأعماق، متحيّنةً الفرصة لمعاودة الانبثاق إلى السطح»(٦).

ذلك رأي «غويتيسولو» في الثقافة العربية الإسلامية بإسبانيا.

٢ - جهود المستشرقين الألمان:

إذا كان الاستشراق الإسباني قد تشكّل في ضوء العلاقات التاريخية العربية الإسبانية، وإذا كان محكومًا برواسب تلك العلاقات، التي لم تكن تخلو من إحنٍ وأحقاد صليبيّة دفينة، لم يأخذ في التخلّص منها إلاّ في القرن الثامن عشر، بالعودة إلى تأمّل زخم التراث الحضاري العربي الإسلامي(٧)، وإذا كان الاستشراق الإنجليزي والفرنسي محكومًا بالأطماع الاستعمارية، وبسط الهيمنة الاقتصادية والسياسية والثقافية أحيانًا، فإن الاستشراق الألماني كان أكثر موضوعيّة وحياديّة، وإنصافًا للعرب وحضارتهم. ولعلّ ذلك يرجع أساسًا إلى كون ألمانيا لم تدخل في علاقاتٍ تاريخيّة مباشرة مع العرب، سواء عن طريق الفتوحات الإسلامية أو عن طريق الاستعمار وبسط السيطرة الاستعمارية.

ومن هنا نجد الاستشراق الألماني يزخر بالكتابات التي تشيد بالحضارة العربية الإسلامية وبدورها في إثراء الحضارة الأوربية، ويكفي في هذه العجالة أن نشير إلى كتابات كلٍّ من: «بروكلمان»، و«هونكه»، و«شيمل»، و«غوته»، وغيرهم ممن كانت المعرفة هدفهم، والموضوعية والنزاهة ديدنهم.

وأيًّا ما يكون الأمر، فإننا لا يمكن أبدًا أن نضع كلّ المستشرقين في سلّةٍ واحدة، ونزعم أنهم يسخّرون أقلامهم لخدمة الاستعمار والامبريالية. وقد أثارت هذه القضية لغطًا كبيرًا بين إدوارد سعيد ومعارضيه من الدارسين من أمثال: «ألبيرت حوراني»، و«مكسيم رودنسون»، و«برنارد لويس»، وغيرهم(٨).

والحقيقة أن إدوارد سعيد نفسه يعترف صراحةً أنه لم يدرس الاستشراق الألماني - بله الاستشراق الإسباني مؤكّدًا أنّ الذي يهمّه في كتابه الموسوم بـ (الاستشراق) - وهو الكتاب الذي لا يزال متمسّكًا بطروحاته، كما يؤكد هو نفسه(٩) - هو الاستشراق المغرض تحديدًا؛ ففي سياق إجابته عن السؤال الآتي الذي وجهه إليه «صبحي حديدي»: «إحدى الحجج الرئيسة ضد «الاستشراق» دارت حول إهمالك للإسهام الألماني، المختلف بهذا القدر أو ذاك، في الدراسات الاستشراقية. منظورٌ نقديّ آخر أوسع جاء من ألبير حوراني ومكسيم رودنسون: كيف ترد على النقطتين؟»(١٠)، يقول:

«لقد أوضحت بجلاءٍ تامّ أن ما أدرسه هو الاستشراق مأخوذًا لا من وجهة نظر ما كُتب عن الشرق، بل من وجهة نظر القوي فقط، التي كانت لها مصالح استعمارية في الشرق الأوسط: فرنسا، وبريطانيا، ثم الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. بوسع الناس أن يقرأوا الاستشراق الألماني كما يحلو لهم. ولكنّ وجهة نظري أنا بالذات لم تنصبّ على إيستمولوجيا جميع الدراسات الشرقية، بل على تلك التي ارتبطت بمشروعٍ إمبريالي تحديدًا»(١١).

ويبدو أن هذا اللبس الذي ضلّل عددًا كبيرًا من منتقدي فكر إدوارد سعيد ناشئٌ أصلاً من عنوان كتابه (الاستشراق)، الذي كان ينبغي أن يذيّل بعنوانٍ

توضيحيّ صغير يحدّد المناطق الجغرافيّة التي تهمه، وإن كان فهرس الكتاب يوضح ذلك بما لا يدع مجالاً للشكّ في منهجيّة إدوارد سعيد.

وإضافةً إلى هذا هناك لبس أخر ذو مصدرٍ أعمق وأخطر يتصل بالمرامي البعيدة لكتاب (الاستشراق)، ونعني بهذا اللبس ما يتصل بالموقف من الغرب؛ فالذي يقرأ كتابات إدوار سعيد عن الاستشراق يستقر في ذهنه ضمنًا أن الرجل يدين الغرب، وينتصر للثقافة العربية الإسلامية، التي تؤكد هويّة الشرق في نهاية المطاف، ولكن إدوارد سعيد يفاجيء القارىء – في سياق الرد على متّهميه بالتعصب والعنصرية من الأوربيين والأمريكيين – بأنه لم يكن متمسّكًا بالهوية العربية الإسلامية، ولم يكن يدافع عنها في حدّ ذاتها بقدر ما كان يريد أن يدافع عن هُجنة الثقافات الإنسانية وتعدّدها، وهو الأمر الذي يشرحه بوضوحٍ في كتابه (الثقافة والإمبريالية) على النحو الآتي:

«إنه لذو أهميةٍ خاصّة بالنسبة لي، كعربيّ وغربيّ، (أن ينجلي) أنّ فكرة التعدّدية الثقافيّة أو الهُجنة – التي تشكّل الأساس الحقيقي للهويّة اليوم – لا تؤدّي بالضرورة دائمًا إلى السيطرة والعداوة، بل تؤدي إلى المشاركة وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة. وإنه لعلى قدرٍ كبير من الأهمية أن نتذكر ذلك في وقتٍ يحاول فيه متطرّفون مثل صامويل هنتنيغتن أن يُقنعوا العالم بأن صدام الحضارات أمرٌ محتوم لا مفرّ منه»(١٢).

فليس من شكٍ في أن مثل هذا التصريح يُصيب كثيرًا من القُرّاء العرب بخيبة أمل، على نحو ما حدث بالنسبة إلى الدكتور «كمال أبو ديب»(١٣) مترجم كتابي (الاستشراق) و(الثقافة والإمبريالية).

إنّ الهجنة الثقافية التي يدعو إليها إدوارد سعيد هنا بوصفها سمة لثقافة العصر، تعني ببساطة التخلي عن الهوية الخاصّة مقابل هوية عالميّة، أو بتعبيرٍ آخر: إنها تعني الدعوة إلى [عولمة] ثقافية تذوب فيها سائر الثقافات المحلية؛ فهل يمكن أن ننظر إلى الهوية بوصفها إثمًا أو عارًا «في عالمٍ متأجّجٍ بصراع الهويات»(١٤)، على حدّ تعبير الدكتور كمال أبو ديب؟! وهل يمكن أن يكتفي العالم بنموذجٍ واحد من الثقافات الإنسانية؟ وهل يمكن أن تكون كل الهويات قابلة للذوبان في هويةٍ واحدة مؤتلفة، تلغي فكرة الهويات أساسًا؟

كل هذه الأسئلة وما يماثلها تظلّ مشروعة عند تثمين موقف إدوارد سعيد من الاستشراق. وليس من شكّ في أن الإجابة عنها بالنفي هي الإجابة المناسبة.

ولعل إدوارد سعيد هنا يقع بين فكّي مفارقة حقيقيّة؛ فهو يدين الإمبريالية الغربية التي توظّف الاستشراق لتحقيق أهدافها المعلنة والمضمرة في استعباد الشعوب وتدمير هوياتها ومسخ ثقافاتها، ثم يقبل النموذج الأوحد الذي تفرزه تلك الإمبريالية، وتريد أن تفرضه بالقوة بوصفه بديلاً عن كل الهويات والثقافات.

والأرجح أن إدوارد سعيد وقع في هذه المفارقة بحكم ظروفه الشخصيّة الواقعيّة التي تفرض عليه أن ينسلخ عن جلده العربيّ كي يُقبل في المجتمع الأمريكي، وبما أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بسهولة، فإنه يطلق مقولته الشهيرة: «إنني شعبان في واحد»، ثم يطلق مقولةً أخرى توسّع دائرة المقولة الأولى وتزيدها إرباكًا، فيجيب عن السؤال الآتي الذي طرح عليه في باريس سنة ١٩٩٤:

«كيف تعيد اليوم صياغة أو إعادة صياغة عبارتك: إنني شعبان في واحد؟». أقول: إنه يجيب عن هذا السؤال على النحو الآتي:

«الحق أنني لم أعد أشعر أنني شعبان منفصلان في واحد، بل أربعة أو خمسة ربما!»(١٥).

وهذا يعني أن إدوارد سعيد يقطع كل صلاته بفكرة الهوية المتميّزة، سواء كانت عربية أو كانت فلسطينيّة، وهو موقفٌ يعدّ قمة في التناقض في فكر إدوارد سعيد الذي عُرفَ بدفاعه المستميت عن القضية الفلسطينيّة.

موقف إدوارد سعيد من الاستشراق

وكي يقنعنا إدوارد سعيد بمثل هذا الموقف، يعمد إلى تمييع العناصر التي تصنع الهويّة المتميّزة؛ فالمكان عنده لم يعد مكانًا محدّدًا، ما دام «الشرق» من صنع مخيّلة الغرب المغرضة، وما دام «الشرق» قد أصبح يشمل العالم الثالث بشكل عامّ، بغض النظر عن المواقع الجغرافية(١٦). والإسلامُ في نظره غامض وغير محصّن ضد التنازع التأويلي الذي «تشهده المجتمعات الإسلامية حول ماهيّته»(١٧)، والعروبة هي الأخرى قد تفقد ماهيّتها تبعًا لذلك كلّه.

وختامًا نقول إن موقف إدوارد سعيد من الاستشراق كان حصيلة دراسة أصيلة واستقراء دقيق دؤوب، ولكنه يظلّ أسير الراهنيّة الذاتية والظروف الشخصية، أو بعبارةٍ أخرى: إنّ المقدمات المنهجيّة لطبيعة الفكر الاستشراقي عند إدوارد سعيد لم تتمخّض عن الموقف المناسب المتوقّع والمنشود، ولكن هذا لا ينقص من قيمته بوصفه باحثًا موهوبًا، يمتلك بصيرة نفّاذة، كما يمتلك ناصية منهجٍ صارم في الاستقراء. ●

●●●

الحواشي

*** إدوارد سعيد مفكر ومنظر وناقد أدبي ومقارن عربي فلسطيني، تخرّج في جامعة هارفارد، وهو مقيمٌ بصفةٍ دائمة في أمريكا، حيث يدّرس الأدب المقارن في جامعة كولومبيا. وقد أصدر عددًا كبيرًا من الكتب من أهمها:**

- جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية (١٩٦٦).
- بدايات : القصد والمنهج (١٩٧٥).
- الاستشراق (١٩٧٨).
- مسألة فلسطين (١٩٧٩).
- الأدب والمجتمع (١٩٨٠).
- تغطية الإسلام (١٩٨١).
- العالم، النصّ، الناقد (١٩٨٣).
- بعد السماء الأخيرة: حيوات فلسطينية (١٩٨٦).
- لوم الضحية (بالاشتراك) (١٩٨٨).
- متتاليات موسيقية (١٩٩١).
- الثقافة والإمبريالية (١٩٩٣).
- سياسة التجريد (١٩٩٤).
- تمثيلات المثقف (١٩٩٤).
- غزة – أريحا سلامٌ أمريكي (١٩٩٥).
- السلام والسخط (١٩٩٥).
- الدراسة التاريخية للأدب ورسالة المثقف (قيد الطبع).

[عن كتاب «تعقيبات على الاستشراق»، ترجمة وتحرير صبحي حديدي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٥٨].

١ – الاستشراق: ٣٨.
٢ – المرجع نفسه: ٣٩.
٣ – المرجع نفسه: ٣٩.
٤ – الثقافة والإمبريالية.
٥ – في الاستشراق الإسباني: ٢٧ – ٢٨.
٦ – المرجع نفسه: ٢٤٩.
٧ – المرجع نفسه: ٢٢٢.
٨ – تعقيبات على الاستشراق: ٩٩ – ١٣٣.
٩ – المرجع نفسه: ١٣٣.
١٠ – المرجع نفسه: ١٤٧.
١١ – المرجع نفسه: ١٤٧.
١٢ – يرجع إلى كتاب الثقافة والإمبريالية: ١٠.
١٣ – يرجع إلى مقدمة كتاب الثقافة والإمبريالية: ١٣ – ٥٤.
١٤ – الثقافة والإمبريالية: ٣٤.
١٥ – تعقيبات على الاستشراق: ١٥٦.
١٦ – المرجع نفسه: ٩، ١٢٦، ١٥٧، ١٠٢ على سبيل المثال.
١٧ – المرجع نفسه: ١٠٤.

المصادر والمراجع

سعيد : إدوارد.

– الاستشراق، ترجمة د. كمال أبو ديب، ط٢، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٤م.
– الثقافة والإمبريالية، ترجمة د. كمال أبو ديب، ط٢، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨م.

غويتيسولو : خوان.

– في الاستشراق الإسباني، ترجمة كاظم جهاد، دار الفنك، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٩٧م.